الفصل الثانى

الأســس التربوية الاسلاميــة

أو الأسس العملية فى منهج التربية الاسلامية

• توطئــة :

هذا ـ لعمرى ـ أهم الفصول .. لأنه يقدم الاسس التى تقوم عليها عملية التربية ، وهى التى تفرق التربية الاسلامية عن غيرها من ألوان التربية الأخرى .

فلئن اعتمدت مناهج التربية الأخرى « التثقيف » والتكيف مع البيئة ، واعداد المواطن الصالح فأن منهجنا يعتمد أسسا أخرى مغايرة ، لتحقيق أهداف أخرى مغايرة ، مستمدا ذلك من مصادر أخرى مغايرة .

وأول ما يعتمده منهجنا هو تربية الفرد على « الاستجابة » لله والرسول .

وهو الذى عنته الآية الكريمة التى حددت مهمة الرسول ﷺ « **يتلوا عليهم آياته** » (١) .

وثانى ما يعتمده هذا المنهج الكريم هو « التزكية » وبها ينفرد المنهج الاسلامى تفردا كاملا « **ويزكيهم** » .

---

(١) آل عمران : ١٦٤ ، الجمعة : ٢

والتزكية عملية لها جانبها السلبى الذى تقوم به ، وجانبها الايجابى الذى تقوم به كذلك ٠

وهى تزكيـــة « مبرمجة » تبدأ بالعقيدة ، وتثنى بالأخـلاق ، ثم تهتم بالتعبد ٠٠ وأخيرا تزكى بالمعاملات وما يليها من آداب وأحكام ٠

والقائم على التزكية عليه واجبات : الصبر ٠٠٠ وهو صبر عن ، وصبر على ٠٠

وله جانبه السلبى ، وجانبه الايجابى ٠٠

ثم عليه الرعاية والدأب ٠٠

ثم عليه الاعراض عما يلفت عن تنفيذ ذلك المنهج الكريم ٠٠

وذلك يجمعه قول الله تعالى : « **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا** » (٢) ٠

وثالث ما يعتمده المنهج هو « التعليم » ٠٠ وهو تعليم يخالف المناهج القائمة ٠

انه يقوم على تعليم الكتاب وعلى تعليم الحكمة « **ويعلمهم الكتاب والحكمة** » ٠

---

(٢) الكهف : ٢٨

الأساس الأول : الاستجابة لله وللرسول

أن أول ما يعنى به منهج التربية الاسلامى ، هو تعويد الفرد المسلم الاستجابة لله وللرسول ، ذلك نجده من خلال نصوص كثيرة ثم من خلال سلوك رسول الله ﷺ وأصحابه فى هذا المضمار .

فأمر الله سبحانه وتعالى لرسوله ، ومن بعده كل مسلم : **«اقرأ باسم ربك الذى خلق »** (٣) . يعنى التنفيذ .. وقد التزم رسول الله ﷺ بذلك التنفيذ ـ والقصة معروفة .

وأمر الله سبحانه وتعالى لرسوله ، ومن بعده كل مسلم : **« يا أيها المزمل . قم الليل الا قليلا »** (٤) .

يعنى طلبا لابد من الاستجابة له ، وقد استجاب رسول الله ﷺ ، واستجاب من معه حتى خفف عنهم بعد ذلك « **فاقرأوا ماتيسر منه ..** » (٥) .

وأمر الله سبحانه وتعالى لرسوله « **يا أيها المدثر . قم فأنذر...**» (٦) . يعنى نفس الشىء ، وقد حدثت نفس الاستجابة .

وقد تضمنها نص قرآنى أمرا الى المؤمنين ليدل ذلك على منهج التربية السليم « **يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه اليه تحشرون** » (٧) .

---

(٣) العلق : ١
(٤) المزمل : ١ ، ٢
(٥) المزمل : ٢٠
(٦) المدثر : ١ ، ٢
(٧) الأنفال : ٢٤

وقد جاءت صفة أولى من صفات الجماعة المسلمة التى أشارت اليها سورة الشورى : «**والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة**»(٨) .

وجاءت بلفظ التلاوة صفة أولى لمن يرجون تجارة لن تبور : « **ان الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور** » (٩) .

وجاءت صفة للذين أوتوا الكتاب : « **الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ..** » (١٠) .

وفى سلوك رسول الله ﷺ وأصحابه . نزل القرآن منجما : « **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا** » (١١) .

« **وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا** » (١٢) .

وهو ما يعبر عنه بعض الصحابة « كنا نتعلم عشر آيات فلا نغادرها الى غيرها حتى نعمل بها » وهذا ما فهمه الفاقهون من صحابة رسول الله ﷺ من قوله تعالى : « **يتلونه حق تلاوته** » (١٣) فقالوا : يعملون به حق العمل ، يحلون حلاله ويحرمون حرامه .

والى هذه المهمة التربوية أشارت بدء الآية الكريمة « **يتلوا عليهم آياته** » ..

---

(٨) الشورى : ٣٨
(٩) فاطر : ٢٩
(١٠) البقرة : ١٢١
(١١) الاسراء : ١٠٦
(١٢) الفرقان : ٣٢
(١٣) البقرة : ١٢١ .

بيد أننا نعلم من سيرة رسول الله ﷺ ومن جميع النصوص أن هذا الأمر يلزم له عناصر ثلاثة :

اخلاص ـ علم ـ عمل ٠

أما الاخلاص فحديثه طويل ، وأدلته كثيرة :

« **وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء** » (١٤) ٠

« **قل الله أعبد مخلصا له ديني** » (١٥) ٠

« انما الاعمال بالنيات ٠٠ » (١٦) ٠

« ان الله لا يقبل من العمـل الا ما كان له خالصا وابتغى به وجهه » (١٧) ٠

لكن الذى نريده فى هذا المجال هو تعليم هذا الاخلاص وتعويد هذا الاخلاص ، أما التعليم فأمره سهل ان شاء الله ، وأما التعويد فهو الصعب ، وهو الذى يحتاج الى التذكير دائما ، ويحتاج للقدوة يراها الانسان أمامه ، فى والد أو قريب أو مرب أو مرشد ، أو ولى أمر ، فان افتقد هؤلاء فرسول الله ﷺ من قبل ذلك ومن بعده هو القدوة والاسوة « **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** ٠٠ » (١٨) ٠ ومن بعد الرسول

---

(١٤) البينة : ٥
(١٥) الزمر : ١٤
(١٦) متفق عليه ٠
(١٧) رواه أبو داوود والنسائى ٠
(١٨) الأحزاب : ٢١

ﷺ القدوة يقدمها المربى من خلال القصص والأمثال ... قصص الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين .

وقصة الثلاثة الذين غلقت عليهم الصخرة . . فدعى كل بصالح عمله . . كان يقترن به ابتغاء وجه الله . فالذى ترك أولاده وزوجه ليحمل غبوق اللبن « اناء اللبن » على يده طوال الليل حتى طلع الفجر .. انما فعل ذلك ابتغاء وجه الله .

والذى ترك ابنة عمه وهى أشهى ما تكون لنفسه بعد أن مكنته من نفسها وجلس بين شعبها الأربع (كما يروى الحديث) انما فعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى .

والذى ثمر المال لصاحبه حتى جاء بعد غيبة طويلة فوجده مضاعفا أضعافا كثيرة قصد بذلك وجه الله تعالى .

والناس هلكى الا العالمون ، والعالمون هلكى الا العاملون ، والعاملون هلكى الا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم ؟

دأب العلم : فهو لازم للعمل .. اذ ما يعمل من لا يعلم ؟

ولذا كان التساؤل القرآنى : « **قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، انما يتذكر أولوا الألباب** » (١٩) . وكان منزلة العالمين بعد الله والملائكة : « **شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم ..** » (٢٠) وكانت أحاديث الرسول ﷺ فى هذا المعنى كثيرة .

---

(١٩) الزمر : ٩

(٢٠) آل عمران : ١٨

بيد أن العلم المطلوب هنا هو :

أولا : العلم بالقرآن « **يتلوا عليهم آياته** »

ثانيا : العلم بما يزيد الانسان ايمانا .. لأن الآيات تشمل آيات القرآن كما تشمل آيات الله فى الأنفس وفى الآفاق : « **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين أنه الحق** » (٢١) .

واما العمل : وهو الغاية من تلاوة الآيات فلابد أن يتسم بالاخلاص وأن يفضى اليه العلم ، **وأن يكون وفقا لما شرع الله** عز وجل .

أما الأولى : فقد تقدمت .

وأما الثانية : ففيها أدلة كثيرة .

ففى القرآن : « **لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتا عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون** » (٢٢) .

وقد فسرت «**لذو علم لما علمناه**» (٢٣) : بـ « ذو عمل لما علمناه» .

وفى الحديث : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسئل عن أربع .. [منها] : ... وعن علمه ماذا عمل به .. » (٢٤) .

وعن على : « ياحملة العلم اعملوا به ، فان العالم من علم ثم عمل ، ووافق علمه عمله » .

---

(٢١) فصلت : ٥٣ (٢٢) الصف : ٢ ، ٣

(٢٣) يوسف : ٦٨ (٢٤) رواه الترمذى

وعن أبى بن كعب « تعلموا العلم واعملوا به ، ولا تتعلموه لتتجملوا به » ٠

وعن بعض العلماء « العلم يهتف بالعمل فان أجابه والا ارتحل »

وأما الثالثة : ففيها قول رسول الله ﷺ : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » (٢٥) أى مردود وباطل ، وفى رواية متفق عليها : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » ٠

وبهذه الثلاثة تتشكل الاستجابة : اخلاص ، وعلم ، وعمل ٠

بيد ان لنا أن نشير الى أن بدء الآية الكريمة بـ « **يتلوا عليهم آياتنا** » وبدء القرآن الكريم بـ « **اقرأ باسم ربك الذى خلق** » تعنى اهتماما خاصا بالقرآن ، وبالتربية على القرآن ٠ قراءة ٠٠

ترتيلا : « **ورتل القرآن ترتيلا** » (٢٦)) وفق قواعد التجويد ، ليحس المربى،والمربى بحلاوة القرآن فضلا عن حلاوة الطاعة فى تنفيذ أمر الله بالترتيل ٠٠ علما واخلاصا وعملا ٠٠

وبذا تكتمل صورة الاستجابة كخطوة أولى فى التربية الاسلامية، وننتقل الى الأساس الثانى بمشيئة الله تعالى ٠

* * *

(٢٥) رواه مسلم ٠ (٢٦) المزمل : ٤

الأساس الثانى : التزكية

● **توطئة :**

التزكية قلب عملية التربية ، وبها ينبض باذن الله تعالى قلب المسلم ·· مجالها النفس أو القلب (٢٧) ·

« **ونفس وما سواها · فألهمها فجورها وتقواها · قد أفلح من زكاها · وقد خاب من دساها** » (٢٨) ·

« ألا ان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » (٢٩) ·

وهى وجهان : الوجه الأول : تخلية ·

والوجه الثانى : تحلية · ولا مشاحة فى الاصطلاح ·

وموارد التزكية أو موادها : عقيدة ـ وأخلاق ـ ونسك (أو تعبد) ـ ومعاملات ·

---

(٢٧) يرى البعض أن النفس والقلب والعقل بمعنى واحد ويفرق البعض بين هذه الثلاثة وبين الروح ، ونحن نرى أن الأربعة معنويا مسمى لشىء واحد ، وأن ظهور جانب عملى من جوانب الغريزة أو العاطفة أو التفكير أو الأشواق هو الذى يغلب تسمية على الاخرى ، فالأسد له أسماء عديدة : هزبر ، ليث ، حيدر ·· وتغلبة اسم على آخر يأتى تبعا للمناسبة والله أعلم ·

(٢٨) الشمس : ٧ ـ ١٠ (٢٩) متفق عليه ·

والقائم على التربية يلزم له صبر ... وصبر بنوعيه : صبر عن ... وصبر على ، وهو يصبر مع ...

ورعاية وأدب .

واعراض عن كل ما يشغل عن هذه المهمة الجليلة .

ذلك ما نبحثه تفصيلا فى هذا البحث ... والله المستعان .

أولا – مجال التزكية :

قلنا انها النفس أو القلب ..

وتلك نقطة البدء لقوله عليه الصلاة والسلام : « التقوى هاهنا » (ثلاث مرات) ويشير الى صدره الشريف . وقول القرآن من قبله : « **ونفس وما سواها . فالهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها** »

بيد أن لنا أن نشير الى أن دائرة التزكية أوسع . انها تشمل الانسان كله ، فكره ، وعاطفته ، وجسمه . ومن هنا كان التعبير القرآن « **ويزكيهم** » .

والتربية السلمية تتم على مرحلتين : مرحلة ازالة الأنقاض . ثم مرحلة البناء ...

أو نأخذها من البعض : تخلية – ثم تحلية .

أو نعبر عنها : بسلب – ثم بايجاب .

وأيا كان التعبير فالمقصود مفهوم ، وهو أن تتم تخلية القلب من كل ما يناقض التربية السليمة ، ثم يجرى تفريغ ما يراد فى هذا القلب وهو ما يسمى بالتحلية .

وهذا الذى نقول به هو مدلول الشهادة الكريمة : «لا اله الا الله»

فهى تحوى شقين : شق سلبى ينفى الألوهية عمن ـ أو عما ـ سوى الله تعالى ٠

وشق ايجابى يثبت الألوهية لله رب العالمين ٠

ولعلها كذلك مدلول قوله تعالى « **فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها** » (٣٠) ٠

وبالترجمة العملية لذلك نقول ان ما سوف نقدمه فى النقطة التالية لابد فيه من الأمرين : تخلية ثم تحلية ٠

ولعل أحدث نظريات التربية ٠٠٠ لم تصل بعد الى ذلك ، والله تعالى أعلم ٠

* * *

ثانيا ـ موارد التربية أو مواد التربية :

هى أولا عقيدة : وفى العقيدة يظهر جليا قيمة التقسيم السابق ، أنه لابد أن يخلو القلب أولا من سوى الله ، ثم لابد أن يمتلىء القلب ثانيا ٠٠ بالله ٠ حبا ، وخوفا ، ورجاء ٠٠٠ وهو تحقيق « لا اله الا الله » ٠٠٠ وتحقيق : « **فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله** » ٠

وبغير كبير خوض فيما تتضمنه العقيدة فى هذا المجال : نشير الى أن كثيرا من الناس لا يدرك ـ فى مجال التربية ـ ما ينبغى أن يربى عليه المسلم ، فيحشو أدمغة السامعين بالكثير من الأدلة ٠٠

---

(٣٠) البقرة : ٢٥٦ ٠

من علم الكلام ، ومن غير علم الكلام ، ويركز على القضايا المنطقية والنواحى الفلسفية ظنا أن هذا يزيد الناس ايمانا ، أو يملأ قلوبهم تسليما واقتناعا ، أو يضفى على نفوسهم طمأنينة وأمانا ... والحق غير ذلك .

ان الناس بحاجة الى « عمل القلب » لا الى علم القلب (٣١) . فالأخير قد يستوى فيه المؤمن والكافر والبر والفاجر .

أما الأول فانه يميز به المؤمن من الكافر والبر من الفاجر ، وهو الجانب العملى الذى ينبغى أن تقوم عليه التربية السليمة .

● **فالعنصر الأول من عمل القلب هو الحب :**

وينبغى أن يتحقق فيه الجانبان : جانب السلب ، وجانب الايجاب .

فأما جانب السلب ، فهو أن يخلو القلب من حب غير الله حبا يصل الى حب الله ، والا وقع المؤمن فى الشرك والعياذ بالله : « **ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله** » (٣٢) وحب غير الله قد يكون شخصا أو مالا أو سكنا . وقد سمى الله سبحانه وتعالى ذلك كله « **متاع الحياة الدنيا** » وجعل فى مقابله

---

(٣١) راجع الايمان الحق للمؤلف ـ و « الايمان » لابن تيمية ، و « العبودية » لابن تيمية .

(٣٢) البقرة : ١٦٥ .

للذين اتقوا ، فأحبوا الله وخافوه : «**جنات تجرى من تحتها الأنهار**» وأزواجا مطهرة ، ورضوانا من الله ..

ذلك ما ذكره لنا رب العالمين فى سورة « آل عمران » : « **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب .**

« **قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد** » (٣٣) .

وفى سورة التوبة : « **قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين** » (٣٤)

وتخلية القلب من حب هذه الأشياء أو هذه الأشخاص ليس بالأمر السهل . وما طلبه الله هو التخفيف حتى لا يتساوى حبها مع حب الله ، وحتى يفضل حب الله عليها ، لأنه سبحانه وتعالى أعلم بمن خلق ، انه لا يمكن أن يخلو القلب تماما من هذه الأشياء ، أو الأشخاص ولكن ينبغى أن يخف ذلك الحب ، ليحل الحب الأكبر . حب الله سبحانه وتعالى .

---

(٣٣) آل عمران : ١٤ ، ١٥ (٣٤) التوبة : ٢٤

وتخلية القلب على هذا النحو يكون بالمعادلة العاقلة والموازنة الراشدة وتفهم ما يترتب على تساوى الحبين ، ومن ناحية أخرى يكون بتقييم هذه الأشياء وهذه الأشخاص ٠

ان الأشياء تافهة مهما كانت ، اذا قيست الى جوار نعيم الآخرة، جنات ، أزواج ، رضوان ، وان الأشخاص كذلك تافهة زائلة اذا قيست الى جوار ما فى الآخرة من نعيم مقيم ٠

● **أما التحلية :**

فتأتى بالمزيد من حب الله : **«والذين آمنوا أشد حبا لله »** (٣٥) ٠

«لايؤمن احدكم حتى أكون أحب اليه من نفسه وماله ومن الناس أجمعين » ٠

« ثلاث من كن فيه ذاق بهن حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ٠٠٠٠٠ » ٠

وهكذا تتواتر النصوص تواترا معنويا على ضرورة زيادة حب الله فى القلب على حب غيره ليتحقق العنصر الأول من عمل القلب ، وتتم به التربية التسليمة ٠

وقد يتساءل البعض : وكيف السبيل الى مزيد من حب الله ؟

ونجيب بعون الله : هى ، أولا : بتذكر نعم الله ، فالانسان مفطور على حب من يحسن اليه واحسان الله الينا يبدأ منذ نعومة

---

(٣٥) البقرة : ١٦٥

اظفارنا ، بل قبل ذلك ونحن أجنة فى بطون أمهاتنا يأتينا فضل الله بغير حول منا ولا قوة ، ونحن فى ظلمات ثلاث ... فنتحول – بفضل الله ونعمته – من نطفة الى علقة ، الى مضغة ، الى عظام يكسوها لحم ، ويجعل لنا عينين ولسانا وشفتين ، ثم هو بعد ذلك يهدينا النجدين .

ومع نعومة الأظفار يتنزل الدم القانى لبنا أبيض سائغا دافئا بالشتاء وباردا بالصيف بقدرة الله وحده ، ويتنزل معه الحنان غذاء للروح والنفس . وينشأ الطفل فى أحضان أمه تقدمه على نفسها وتفتديه بكل غال وعزيز ... والله سبحانه هو الذى يتولى هذا كله .

وتظل معنا نعم الله مع أطوارنا كلها .. لكنا قد لا نتذكرها أو لا ندركها الا فى حالين : حال افتقادها ، أو حال الاضطرار : « **أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض، أ اله مع الله** » (٣٦) ؟؟

ومن هنا كان قول رسول الله ﷺ : « أحبوا الله لما يغذوكم به من النعم » (٣٧) .

● **أما السبيل الثانى :** فهو التفكير فى أسماء الله وصفاته :

ذلك أن الانسان كذلك مفطور على حب كل أمثل ... والله الأسماء الحسنى والصفات العليا .. فلم لا نحبه ؟

---

(٣٦) النمل : ٦٢

(٣٧) أخرجه الترمذى .

اذا أحببت كريما فالله أكرم ، وان أحببت رحيما فالله أرحم ، وان أحببت كبيرا فالله أكبر وأعظم ·· وهكذا ، وهذا بعض سر أسمائه وصفاته ·

بيد أنه ينبغى علينا أن ندرك ونحن نتفكر فى أسماء الله وصفاته : أن الانسان وان شارك فى بعض الصفات « كالرحمة والكرم ·· » فان هناك صفات لا يشارك فيها « كالعظمة والكبرياء والجبروت···» فضلا عن أن ما يشارك فيه الانسان يشارك فيه بقدر مقدور ، لأنه لا يملك ولا يستطيع أن يصل الى سمو صفاته ولا الى عمقها وشمولها ·

واذا أخذنا مثلا : الرحمة ·· فأن أكبر رحمة تضرب هى رحمة الأم بولدها ·· ومع ذلك تقف تلك الرحمة عاجزة اذا وقفت سدود أو عوائق عن أن توصلها الى ابنها ··· كوجوده فى سجن ظالم يمنع ويتجبر ! ، كذلك فان هذه الرحمة تقف قاصرة على الابن فلا تمتد الى غيره من أبناء الغير · أما رحمة الله فأنه يقول فيها : « **ورحمتى وسعت كل شىء** » (٣٨) ·

---

(٣٨) وقد عمدت أن اضرب مثلا فى بعض محاضراتى بشخص تواجد فى سجن للظالمين منع عنه الطعام والشراب الا ماندر ، وتعرض للتعذيب الاليم القاسى أكثر اوقاته الا ما ندر ، ويوما ما عمد الى الصيام تقربا الى الله تعالى ، واستدرارا لعطفه ورحمته ، وقبل الافطار نودى عليه فاذا هو فى ساحة التعذيب ينتظر دوره فيه · فلما آذنت الشمس بمغيب تقلب وجهه فى السماء يسأل الله من =

كذلك يتأتى حب الله ويزداد من خلال ما يحسه الانسان من مشاركته الله فى بعض صفاته ، وعنصر المشاركة يولد الود والحب كما هو معلوم ومعروف ـ والله أعلم .

● **أما العنصر الثانى ، فهو الخوف :**

وهو كذلك يتضمن الجانبين :

جانب السلب .. بانتفاء الخوف من غير الله تعالى .

وجانب الايجاب ... بتحقق الخوف من الله تعالى .

ويجمعهما قول الله سبحانه وتعالى : « **الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله** » (٣٩) .

« **انما يخشى الله من عباده العلماء** » (٤٠) .

« **رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه** » (٤١) .

= فضله ورحمته . وكان يجلس كغيره من المعذبين وجهه للحائط لا يلتفت يمينا أو يسارا ويقف على رأسه احد زبانية العذاب ، وفجأة سمع صوت آذان من مكان سحيق ولم ينته الآذان حتى امتدت اليه يد احد المعذبين يسأله هل انت صائم ؟ وما كان قد باح لأحد بهذا السر .. فقال نعم .. فاذا اليد الأخرى تمتد بطبق فيه طعام شهى لا يوجد فى السجن وفوقه تمرة كبيرة حتى يفطر على السنة ... ارأيت كيف تخطت رحمة الله السدود والقيود وجاءت من حيث لا يحتسب الانسان ؟ ـ والآية من سورة الأعراف : ١٥٦ .

(٣٩) الأحزاب : ٣٩ (٤٠) فاطر : ٢٨

(٤١) البينة : ٨

وقوله : « **أتخشونهم ، فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين** » (٤٢) ٠

« **سيذكر من يخشى** » (٤٣) ٠

« **هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون** » (٤٤) ٠

« **ولمن خاف مقام ربه جنتان** » (٤٥) ٠

● **أما كيف تنفى الخوف من غير الله ؟**

فانه بالتفكر والنظر الى عجزهم وضعفهم وعدم قدرتهم : « **أيشركون ما لا يخلق شيئا وهو يخلقون ٠ ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون** » (٤٦) ٠

« **قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ٠ آف لكم ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون** » (٤٧) ٠

وفى الحديث : « لا أجمع على عبدى خوفين ، ولا أجمع له أمنين، فان أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة ، وان خافنى فى الدنيا أمنته يوم القيامة » (رواه ابن حبان فى صحيحه ، والبيهقى فى الشعب) ٠

وقالت عائشة رضى عنها : « **الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون** » (٤٨) هو الرجل يسرق ويزنى ؟ قال :

---

(٤٢) التوبة : ١٣ (٤٣) الأعلى : ١٠

(٤٤) الأعراف : ١٥٤ ٠ (٤٥) الرحمن : ٤٦

(٤٦) الأعراف : ١٩١ ، ١٩٢ (٤٧) الأنبياء : ٦٦ ، ٦٧

(٤٨) المؤمنون : ٦٠ بلفظ : « **والذين** ٠٠٠ »

« لا ، بل الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه » (رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم) .

« لا يلج النار عبد بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن فى الضرع » (رواه الترمذى ، وقال : حسن صحيح والنسائى) .

« سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل الا ظله [منهم] : ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » (متفق عليه) .

وكان ﷺ اذا دخل الصلاة سمع لصدره أزيز كأزيز المرجل (رواه أبو داوود والترمذى والنسائى) .

ويروى عن عمر رضى الله عنه : « لو نودى ليدخل النار كل الناس الا رجلا واحدا لرجوت أن أكون ذلك الرجل ، ولو نودى على الجنة ليدخلها كل الناس الا رجلا واحدا لخشيت أن اكون ذلك الرجل » (جـ ١٣ ص ٢٠) .

وكان اذا سمع من القرآن آية وعيد خر مغشيا عليه أو مرض فيعاد فى بيته شهرا (جـ ١٣ ص ٥٢ ، ٥٣) .

وكان فى وجهه خطان أسودان من الدموع (المرجع السابق) .

وقال مالك بن دينار : « بينما أطوف بالبيت اذا أنا بجويرية متعبدة متعلقة بأستار الكعبة وهى تقول : « يارب ، كم شهوة ذهبت لذاتها وبقيت تبعاتها » .. فصرخ وقال : ثكلت أمه . (المرجع السابق ص ٥٤) .

● **وأما كيف يوجد الخوف من الله ؟**

فكذلك بالتفكير فى أسمائه وصفاته التى من شأنها أن تورث هذا الخوف : السميع ، البصير ، القدير ، المنتقم ، الجبار ، القيوم ٠

ثم من التفكير فيما بعد الموت ٠٠ القبر وظلمته ووحشته ، الموقف ورهبته وشدته ، الحساب ورعبه ووجله ، النار : عذابها ٠٠ طعامها ٠٠ شرابها ٠٠ المكث فيها ٠٠ ومعها : « **لمن الملك اليوم ، لله الواحد القهار ٠ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم ، ان الله سريع الحساب** » (٤٩) ٠٠

« انما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم اياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه » (٥٠) ٠ ويضيف اليها الغزالى سببا ثالثا هو تدبر القرآن (ج ١٣ ص ٢٩)

وحكت مولاة لعمر بن عبد العزيز أنها رأت الصراط فجىء بعبد الملك بن مروان فانكفأ عليه ، ثم جىء بالوليد فانكفأ عليه ، ثم بسليمان بن عبد الملك فانكفأ عليه ، ثم جىء بك يا أمير المؤمنين ،

فصاح عمر صيحة وقع مغشيا عليه فقامت وهى تنادى فى أذنه : والله قد نجوت ، انى رأيتك والله قد نجوت ٠ (ج ١٣ ص ٥٨) ٠

---

(٤٩) غافر : ١٦ ، ١٧

(٥٠) وقد ذكرها الامام الغزالى فى مقامين : الخوف من الله والخوف من عذابه ، والأول خوف العلماء ، والثانى خوف العامة (الاحياء ج ١٣ ص ٢٧) ٠

ويقول الامام الغزالى : اننا اذا أردنا المال فى الدنيا زرعنا وغرسنا واتجرنا ، وركبنا البحار والبرارى وخاطرنا ، واذا أردنا طلب العلم تفقهنا وتعبنا فى حفظه وتكراره وسهرنا واجتهد فى طلب أرزاقنا ولا نثق بضمان الله لها ، فاذا طمحت نفوسنا نحو الملك الدائم المقيم قنعنا أن تقول ألسنتنا : اللهم اغفر لنا وارحمنا . **« وأن ليس للانسان الا ما سعى »** (٥١) ، **« ولا يغرنكم بالله الغرور »** (٥٢) ، **« يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم »** (٥٣) .

وفى بحث قيم هل الخوف أفضل أم الرجاء ؟ انتهى الامام الغزالى أن غلبة الرجاء عند الموت أصلح لأنه أجلب للمحبة ، وغلبة الخوف قبل الموت أصلح لأنه أحرق لنار الشهوات . (احياء علوم الدين : جـ ١٣ ص ٢٣) .

ومع الخوف الرجاء .. وهو يتوازن مع الخوف .. أو يجعل التوازن داخل النفس فتتردد بين الخوف والرجاء .

« يرجون رحمته ويخافون عذابه » (٥٤) .

« نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم » (٥٥) .

---

(٥١) النجم : ٣٩ (٥٢) لقمان : ٣٣ ، فاطر : ٥

(٥٣) الانفطار : ٦

(٥٤) الاسراء : ٥٧ بلفظ : **« ويرجون ٠٠ »**

(٥٥) الحجر : ٤٩ ، ٥٠ .

« قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » (٥٦) ٠

« ان الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور » (٥٧) ٠

«**واسوف يعطيك ربك فترضى**»(٥٨) قيل فى تفسيرها: «لا يرضى وواحد من أمته فى النار » (٥٩) ٠

« ويدعوننا رغبا ورهبا » (٦٠) ٠

« يدعون ربهم خوفا وطمعا » (٦١) ٠

وفى الحديث : «لا يموتن أحدكم الا وهو يحسن الظن بالله تعالى» « وأنا عند ظن عبدى بى » (٦٢) ٠

ودخل عليه الصلاة والسلام على رجل فى النزع فقال : كيف تجدك ؟ فقال : أجدنى أخاف ذنوبى وأرجو رحمة ربى ، فقال : « ما اجتمعتا فى قلب عبد فى هذا الموطن الا أعطاه الله ما رجا وأمنه مما يخاف » (٦٣) ٠

---

(٥٦) الزمر : ٥٣ ٠ (٥٧) فاطر : ٢٩ ٠

(٥٨) الضحى : ٥ ٠

(٥٩) احياء علوم الدين ج ١٢ ص ١٨١ ٠

(٦٠) الأنبياء : ٩٠ (٦١) السجدة : ١٦

(٦٢) رواه البخارى ومسلم ٠

(٦٣) الترمزى والنسائى وابن ماجة وقال النووى اسناده جيد ٠

وقال عليه الصلاة والسلام : « اذا سألتم الله فاعظموا الرغبة واسألوا الفردوس الأعلى ، فان الله لا يتعاظمه شيء » (٦٤) ٠

وقال عليه الصلاة والسلام : « لو علمتم ما أعلمه لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخـرجتم الى الصعدات تلوون صدوركم وتجأرون الى ربكم » (٦٥) ٠

وقال : « اذا أذنب العبد ذنبا فاستغفر الله يقول الله عز وجل لملائكته : انظروا الى عبدى أذنب ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنوب ، ويأخذ بالذنب ، أشهدكم أنى قد غفرت له » (٦٦) ٠

وقال « لو لقينى عبدى بقراب الأرض ذنوبا لقيته بقراب الأرض مغفرة » (٦٧) ٠

وقال على رضى الله عنه لرجل أخرجه الخوف الى القنوط لكثرة ذنوبه : « يا هذا ، يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك » (٦٨) ٠

ونعله رضى الله عنه يشير الى الآية الكريمة : « **انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون** » **(٦٩)** ٠

---

(٦٤) رواه مسلم ٠

(٦٥) أوله متفق عليه من حديث أنس الى « كثيرا » . وبقيته من رواية أحمد والحاكم ، تخريج الحافظ العراقى على هامش الاحياء (جـ ١٢ ص ١٧٨) ٠

(٦٦) متفق عليه ٠ (٦٧) رواه مسلم ٠

(٦٨) الاحياء جـ ١٢ ص ١٧٧ ٠

(٦٩) يوسف : ٨٧

وقال سفيان : «من أذنب ذنبا فعلم أن الله قدره عليه ورجا غفرانه، غفر الله لـه ذنبـه . قال : لأن الله عـز وجـل عير قوما فقـال : « **وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم** » (٧٠) .

وقال تعالى « **وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا** » (٧١) .

وفى الرجاء كذلك تخلية ثم تحلية ، ليتحقق له الجانبان ، فيخلى قلبه من رجاء غير الله تعالى ، ويملأ قلبه برجاء الله تعالى ، وسبيله الى ذلك الاعتبار بنعم الله ، وفضله والنظـر فى الآيات والآثار (٧٢) .

وتتحقق معه «**إياك نعبد وإياك نستعين**» (٧٣) فيقصر الاستعانة على الله تعالى كما يقصر الاستغاثة على الله تعالى .

وتلك بعض عناصر عمل القلب ... خب ، وخوف ، ورجاء .. به يتحرك القلب وتتحقق له التربية العملية فى مجال العقيدة .

أما أولئك الذين يقصرونها على التثقيف والحشو الذهنى فانهم لا يمارسون تربية صحيحة ولا يتحقق بها ولا بهم ايمان صحيح

---

(٧٠) فصلت : ٢٣ .
(٧١) الاحياء جـ ١٢ ص ١٧٧ – والآية من سورة الفتح : ١٢
(٧٢) الاحياء جـ ١٢ ص ١٨٠ .
(٧٣) الفاتحة : ٥

ولا عقيدة سليمة وعلى هذا كان السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم (٧٤) ٠

والحديث عن دور « الأخلاق » فى التزكية حديث يطول ٠٠٠ ذلك أن الكثيرين غفلوا عنها حتى استغنى عنها بعضهم وجاءت نظمهم خالية منها (٧٥) ٠

والذين اعتبروها من هؤلاء أسسوها على أساس من المنفعة ، فان قامت منفعة كان بها والا فهم أغنياء عنها (٧٦) ومن ثم تجزأت

---

(٧٤) راجع « الايمان الحق » للمؤلف ، المراجع المشار اليها « الايمان » لابن تيمية « والعبودية » لابن تيمية ، «مدارج السالكين» لابن القيم ، « الاحياء » للامام الغزالى ٠

(٧٥) فى الغرب أسقطوا القاعدة الخلقية من نظامهم القانونى لأنه ليس جزاء (Sanction) وقبل ذلك أسقطوها من حياتهم حين بلغوا بالحرية حد الفوضى التى تعدت حدود الأخلاق ، راجع المشروعية العليا للمؤلف

(٧٦) تقوم الأخلاق فى الغرب على المنفعة ـ راجع منهج القرآن فى تربية المجتمع ، والمراجع المشار اليها ص ١٦٧ وما بعدها ٠ ولقد اختلفوا فى تعريف الأخلاق : فخلطوها بالشخصية حينا ، وبالوجدان آنا وبالذكاء أحيانا ٠

فالأستاذ (Mc Doygell) يقول :

(Social Psychology well-developed character, is an integrated system of sentiments, a system. That is a hierarchy dominated a single master sentiment and integrated by that domince). =

الأخلاق ، فالانجليزى يعرف داخل بلاده الصدق والأمانة والاتقان ، ولكنه خارج بلاده غير ذلك ، (٧٧) ـ ويأبى الله لأخلاقنا الا أن تكون غير ذلك ...

فهى أولا جزء ، وجزء عزيز من شريعة الله تبارك وتعالى .

وهى فى أهميتها تأتى صنو العقيدة وأثرا مباشرا لها .

وهى تبلغ أن تكون غاية رسالة رسول الله ﷺ .

وبها تميز رسول الله ﷺ « دعانا ربنا أن نقتدى به ، بل دعانا من قبلها أن نقبس ما استطعنا من صفاته » .

= ومعناه : الخلق القويم هو نظام تصاعدى متكامل من العواطف تسيطر عليه بهذه العواطف وتكامله نتيجة لتلك السيطرة فهو وجهة خاصة فى الشخصية النامية تؤدى الى التماسك (consistency) العزيمة والصلابة (Firmness) ضبط النفس (self control) « التوجه » (Self Direction) ، أمـــا (Bagly) فهو يرى أن الخلق عبارة عن كثير من العادات الصالحة النافعة (راجع تفصـيلا لذلك التربية وطـــرق التدريس ـ الأســـتاذ صالح عبد العزيز ج ٢ ص ٢٣١ ـ ٢٣٩ وقد أشـار فى نهاية عـرضه الى الفلسفـة الثنائية حـول الغـاية والوسيلة عنـد من يزعم أنهمـا شيئان منفصلان ومن هنا يظهر التضارب بينهما ـ ويظهر من يدعى أن الغاية تبرر الوسيلة أيا كانت درجة (الأخوة) من الاخلاق والفضائل .

(٧٧) ذلك ملحوظ لا يحتاج الى بيان ، راجـع منهج القرآن فى تربية المجتمع ص ١٦٧ وما بعدها .

أما أنها جزء عزيز من شريعة الله تعالى ·· فقد غلط الكثيرون اذ صرفوا الشريعة الى الأحكام وحدها ، مع أن الدعوة اليها كانت من قبل تنزل الأحكام « **ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون** » (٧٨) ·

« **شـــرع لكم من الدين ما وصى به نوحـا والذى أوحينا اليك ···** » (٧٩) ·

« **أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** » (٧٩) ·

وغلطوا مرة ثانية : اذ الشريعة مرادف للدين والملة ·· والأخلاق جزء من الدين والملة ··

وغلطوا مرة ثالثة ··· اذ ساحة الأحكام فى القرآن لا تغادر واحدا على ثلاثين بينما الأخلاق تزيد على ذلك ·

ولنأخذ لذلك بعض الأمثلة ··· ان آية البر فى سورة البقرة اذ تعدد ألوان البر فتذكر ستة أنواع وتصفها فى النهاية بالصدق والتقوى فان ثلاثة من هـذه الستة هى صـفات خلقية · والثلاثة الأخرى ·· هى الايمان ، والصلاة ، والزكاة ·

فاذا خلط هذا بذاك على أنه بر وصدق وتقوى فذلك يشعرنا بأن شريعة الله وحدة لا تتجزأ ، ويشعرنا معها بأهمية الأخلاق ووقوفها جنبا الى جنب مع الايمان والصلاة والزكاة بل انها تقدم صفة أخلاقية على الصلاة والزكاة وتتبعهما بصفتين أخريين ، بل ان الآية تبدأ

---

(٧٨) الجاثية : ١٨ (٧٩) الشورى : ١٣ ·

بقولها : « **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر ...** »

وفى سورة الرعد صفات ثمانية : نصفها أخلاق ، والنصف الآخر نصفه صفتان عقديتان ، ونصفه الآخر صلاة وانفاق ، واذا عددنا الصفة الأخيرة خلقية باطلاقها وعدم اقتصارها على الصلاة ظفرنا بخمس صفات خلقية من بين ثمانية لأولى الألباب .

ومن بين تسع صفات لعباد الرحمن ... تقف صفات ست مع الأخلاق وثلاثة مع العقيدة ، والعبادة ! واذا أضفنا النهى عن القتل والزنا باعتبار هذا الامتناع خلقا صارت ثمانية ! ولنسمع هذه الآيات :

« **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون** » (٨٠) .

« **أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى ، انما يتذكر أولوا الألباب . الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون**

---

(٨٠) البقرة : ١٧٧

الميثاق • والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب • والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرأون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار • جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب • سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار » (٨١) •

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما • والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما • والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ، ان عذابها كان غراما • انها ساءت مستقرا ومقاما • والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما • والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما • يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا • الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيما • ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا • والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما • والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا • والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما • أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما • خالدين

---

(٨١) الرعد : ١٩ ـ ٢٤

فيها ، حسنت مستقرا ومقاما • قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم ، فقد كذبتم فسوف يكون لزاما » (٨٢) •

● **وأما أنها صنو العقيدة وأثر مباشر لها :**

فقد تقدم من الأمثلة ما يدل على ذلك ، فالله سبحانه يضفى على الصفات الخلقية صفات البر والصدق والتقوى ويجعلها جنبا الى جنب مع الايمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين – كما هو الحال فى المثال الأول •

ويجعل كذلك صنو السجود والايمان والتوبة فى المثال الثانى ، ويجعل هذه صفات فئة أسماها عبادا وشرفها فأضافها الى أشرف أسمائه الرحمن : « **قل ادعوا الله أو ادعـوا الرحمن ، أيا ما تدعو فله الأسماء الحسنى** » (٨٣) •

وبين هذه وتلك يجعلها صنو خشية الله وخوف حسابه ، ويجعل جزاءها جنات عدن ويجعل تحية الملائكـة بذكر صفة من صفات الأخلاق : الصبر : «**سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار**» (٨٤)

● ومن الحديث ما يؤكد ذلك ويجعلها أثرا مباشرا للايمان :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » •

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » •

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت »

---

(٨٢) الفرقان : ٦٣ – ٧٧ (٨٣) الاسراء : ١١٠

(٨٤) الرعد : ٢٤

● وعلى العكس من ذلك ينتفى الايمان مع انتفاء الخلق :

« لا ايمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » (٨٥) ٠

« لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » (٨٦) ٠

« والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ــ قيل : من يا رسول الله ؟ قال : الذى لا يأمن جاره بوائقه » (٨٧) ٠

« ثلاث من كن فيه فهو منافق ، وان صام وصلى وحج واعتمر وقال انى مسلم : اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا اؤتمن خان » (٨٨) ٠

وقيل : يارسول الله ، ان فلانه تذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها غير أنها تؤذى جيرانها بلسانها ٠ قال : « هى فى النار » ثم قيل : يارسول الله ، فلانة تذكر من قلة صلاتها وصيامها وانها تتصدق بالأثوار من الأقط (أى بالقطع من الجبن) ولا تؤذى جيرانها٠ قال : « هى فى الجنة » (٨٩) ٠

---

(٨٥) رواه أحمد ٠

(٨٦) وفى المعنى : « اذا زنى العبد خرج الايمان فكان على رأسه فاذا أقلع رجع اليه » ــ رواه أبو داوود والترمذى وصححه الحاكم على شرط الشيخين ٠

(٨٧) رواه البخارى

(٨٨) رواه مسلم

(٨٩) رواه أحمد

وسأل الصحابة يوما رسول الله ﷺ : أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ... فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فان فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار » (٩٠) .

ترى ، هل تكفى هذه النصوص ؟ ... أحسب ذلك والله أعلم .

● **وأما أنها تبلغ أن تكون غاية رسالة رسول الله ﷺ :**

فقد نص على ذلك رسول الله ﷺ : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (٩١) .

وقد فعل ذلك رسول الله ﷺ .. على مدى ثلاثة عشر عاما فى مكة يربى المسلمين على الأخلاق اضافة الى العقيدة ، بل وفعلها كذلك فى المدينة المنورة على مدى عشر سنوات أخرى يربيهم على الأخلاق اضافة الى العقيدة والعبادة والتشريع .

وان اختلفت الأساليب فى الحالين .. فالغاية واحدة .. مكارم الأخلاق .

ويخطىء من يظن فترة المدينة .. بلا أخلاق .. انشغالا بالتشريع .. عبادات ومعاملات ، وانشغالا بالحروب والسرايا

---

(٩٠) رواه مسلم .

(٩١) رواه الترمذى

والفتوح ، لقد كانت الاخلاق تعمل مع هذا كله ، بل وقد كانت تعمل من خلال هذا كله ٠

والا فلنأخذ الأخيرة مثلا ٠٠٠ الحروب ٠

حروب اليوم لا أخلاق فيها ٠٠ فيها الغدر ، وفيها المثلة ، وفيها الاجهاز على الضعيف ، والشيخ والمرأة ٠٠٠ وحروب رسول الله ﷺ حروب أخلاقية هى كذلك من ناحية الغاية ٠٠٠ فغايتها ٠٠ أن يكون الدين كله لله : « **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** » (٩٢) ٠

وهى كذلك من خلال الوسيلة : « اغدوا باسم الله ٠٠ لا تقتلوا شيخا ولا امرأة ولا طفلا » ٠

وهى كذلك من خلال التوجيه ٠٠ فمرة ينتصرون فيعلمهم ويربيهم أن « **وما النصر الا من عند الله** » (٩٣) ٠

« **واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون** » (٩٤) فيرد النصر الى الله ، ويعلمهم من خلال النصر أخلاق الشكر لله ـ ومرة ينهزمون ٠٠ فيعلمهم ويربيهم من خلال الهزيمة :

---

(٩٢) الأنفال : ٣٩

(٩٣) آل عمران : ١٢٦ ، الأنفال : ١٠

(٩٤) الأنفال : ٢٦

« ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » (٩٥) .

« حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين » (٩٦)

فيعلمهم ويربيهم على عدم الاغترار بالكثرة وعلى أن التنازع قرين الفشل ، وأن حب الدنيا يكون معه البلاء ، ويحنو عليهم رغم خطئهم فيقول : « ولقد عفا عنكم » .

أى تربية كريمة تلك التربية ؟ .

وهكذا ربى المسلمون على الأخلاق ، سلما وحربا ، صبرا وزحفا ، هزيمة ونصرا .

● **وأما أن بها تميز رسول الله ﷺ وبه اقتدى المسلمون :**

ففى ذلك نص : « **وانك لعلى خلق عظيم** » (٩٧) .

« **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** » (٩٨) .

وفى ذلك كانت تقول عائشة رضى الله عنها : « لقد كان خلقه القرآن » (٩٩) .

---

(٩٥) التوبة : ٢٥
(٩٦) آل عمران : ١٥٢
(٩٧) القلم : ٤
(٩٨) الأحزاب : ٢١
(٩٩) رواه البخارى

وتحكى هى ، وتحكى أمهات المؤمنين ، ويحكى الصحابة عن أخلاق رسول الله ﷺ الكثير : صدقه ، أمانته ، وفاؤه ، اخلاصه ، أدبه ، قوته ، حلمه وصفحه ، جوده وكرمه ، قصده وعفافه ، رأفته ورحمته ، علمه وعقله .

ويطول بنا الحديث .. لو عددنا .. فكل خلق القرآن خلقه . وهو فى هذا مثل أعلى .. يقترب منه المسلمون ، ويقتبسون منه قدر ما يستطيعون .

ولنأخذ بعض الأمثلة :

● أما صدقه . فقد عرف به من قبل البعثة حتى لقب بالأمين . أو بالصادق الوعد الأمين . وحتى أسلم له الكفار أمرهم لما اختلفوا حول وضع الحجر الأسود وارتضوا أول داخل . وكان الأمين هو أول الداخلين .

وحتى تحرجوا حين وقع بهم الأمر أن يتهموه كذبا .. وقالوا له : ما جربنا عليك كذبا .

وهاك بعض ما كان يوجه به أصحابه ، وهو من قبل ملتزم به :

« عليكم بالصدق فان الصدق يهدى الى البر ، والبر يهدى الى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق ، حتى يكتب عند الله صديقا ، واياكم والكذب ، فان الكذب يهدى الى الفجور ، وان

الفجور يهدى الى النار ، ولا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » (١٠٠) .

ويصل فى النهى عن الكذب حتى ينهى عنه فى المزاح ، وفيما قد يظن أنه ليس مجالا للكذب :

« أنا زعيم ببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وان كان مازحا » (١٠١) .

« لا يؤمن العبد الايمان كله ، حتى يترك الكذب فى المزاح والمراء ، وان كان صادقا » (١٠٢) .

«من قال لصبى : تعال ، هاك .. ثم لم يعطه فهى كذبة» (١٠٣) .

وأخيرا يقرر رسول الله ﷺ أنه يمكن أن يجتمع مع الايمان جبن وبخل ، لكن الايمان والكذب لا يجتمعان « سئل رسول الله ﷺ أيكون المؤمن جبانا ؟ قال : نعم . قيل له : أيكون المؤمن بخيلا ؟ قال : نعم . قيل له : أيكون المؤمن كذابا ؟ قال ، لا » (١٠٤) .

ويجعله الوحى علامة الايمان وعلامة الرجولة ، وعلامة الجهاد :

« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » (١٠٥) .

---

(١٠٠) رواه البخارى
(١٠١) رواه البيهقى
(١٠٢) رواه أحمد
(١٠٣) رواه أحمد
(١٠٤) رواه مالك
(١٠٥) الأحزاب ٢٣

« انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون » (١٠٦) ٠

● أما أمانته : فهى قرينة صدقه ، ولذا سمى « بالصادق الوعد الأمين » ٠

وكان حقا أمين الأرض يتنزل عليه بالوحى أمين السماء : **« مطاع ثم أمين » (١٠٧) ٠**

والأمانة فى الاسلام أمانات ٠٠ ينبغى أن تحفظ والا عد منتهكها غادرا وخائنا وهى تبدأ من أدنى الأمانات التى يظنها الناس ٠٠ وتنتهى الى أعلى ما يظن الناس ٠

وتجاوز فى منطق الوحى ذلك الذى يظن الناس ٠

ـ أما أدناها ٠٠٠ فهى أمانة المجالس ٠٠ ما يقوله الرجل لصاحبه ، وما يفضى به الرجل الى زوجه ٠ انها أمانة ٠

اسمعوها من رسول الهدى يقولها ويتمثلها ويربى الناس عليها: « اذا حدث رجل رجلا بحديث ثم التفت فهى أمانة » (١٠٨) ٠

« ان من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة : الرجل يفضى الى امرأته وتفضى اليه ثم ينشر سرها » (١٠٩) ٠

أما أعلاها فى نظر الناس فهى الولاية ٠٠ يقول فيها رسول الله

---

(١٠٦) الحجرات ١٥ (١٠٧) التكوير : ٢١

(١٠٨) رواه أبو داوود

(١٠٩) رواه أحمد وتقديرها أن من أعظم خيانة الأمانة ٠

ﷺ فيما يرويه أبو ذر : قلت يارسول الله ، ألا تستعملنى ؟ قال : فضرب بيده على منكبى ثم قال : « يا أبا ذر ، انك ضعيف وانها امانة ، وانها يوم القيامة خزى وندامة ، الا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها » .

أما ما يجاوز ذلك فى منطق الوحى : فهى الأمانة الكبرى . أمانة الدين : «**يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون**» (١١٠) .

« **ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** » (١١١) .

« **انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان ، انه كان ظلوما جهولا** » (١١٢) .

وبين هذا وذاك أمانات تختلف عظما وصغرا عند الناس ، لكنه قد يكون عند الله عظيما : «**وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم**» (١١٣)

ولذا كان من جزاء ضياع الأمانة .. انتظار الساعة .

وكان من نتيجتها يوم القيامة أن يرفع كل غادر لواء غدره .

---

(١١٠) الأنفال : ٢٧ (١١١) النساء : ٥٨

(١١٢) الاحزاب : ٧٢

(١١٣) النور : ١٥ ، وتفصيلا للأمانات بحث شيق لفضيلة الشيخ محمد الغزالى فى كتابه القيم «خلق المسلم» .

وأن يأتى الرجل بما غل يوم القيامة بحمله ٠

يقول رسول الله ﷺ : « اذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة » فقال : وكيف اضاعتها ؟ قال : اذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة » (١١٤) ٠

ويقول عليه الصلاة والسلام : « اذا جمع الله بين الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء يعرف به فيقال : هذه غدرة فلان ٠٠ » (١١٥) ٠

وفى رواية : « لكل غادر لواء عند استه ، يرفع له بقدر غدرته ، ألا ولا غادر أعظم من أمير عامة » (١١٦) ٠

أما الثالثة ٠٠٠ فقوله تعالى « **ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** » (١١٧) ٠

وفيه قوله عليه الصلاة والسلام تعقيبا على ما قاله أحد الولاة «ابن اللتبية» استعمله رسول الله على الصدقة فلما قدم قال : هذا لكم وهذا أهدى الى ، فقام رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد ، فانى أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولانى الله فيأتى فيقول : هذا لكم ، وهذا هدية أهديت الى ، أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته ان كان صادقا !! والله لا يأخذ أحد منكم شيئا بغير حقه الا لقى الله يحمله يوم القيامة ٠ فلا أعرفن أحدا منكم لقى الله يحمل بعيرا له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة

---

(١١٤) رواه البخارى
(١١٥) رواه البخارى
(١١٦) رواه مسلم ٠
(١١٧) آل عمران : ١٦١

تيعر » . ثم رفع يديه حتى رؤى بياض ابطيه يقول . « اللهم هل بلغت » (١١٨) .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « من استعملناه على عمل فرزقناه رزقا فما أخذ بعد ذلك فهو غلول » (١١٩) .

● أما حلمه وصفحه : فيكفيه مثلا فى حلمه ذلك الأعرابى الذى جاءه يمسك بتلابيبه حتى حز الثياب فى عنق رسول الله ﷺ وقارب أن يختنق وهو يقول له : « أعطنى من مال الله لا من مالك ولا من مال أبيك » .

فهم عمر يريد أن يضرب الرجل بسيفه .

ولو فعل لما كان عليه ـ فى ظنى ـ من سبيل .

لكن رسول الله ﷺ قال التوجيه النبوى الكريم : « كان عليك أن تأمره بحسن الطلب وأن تأمرنى بحسن الأداء » .

وأما صفحه فيكفى فيه ما قاله رسول الله ﷺ فى شأن أعدائه بل ألد أعدائه الذين أخرجوه من داره وعذبوا أصحابه .. يوم مكن منهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

أما بقية الأخلاق فتفصيلها يطول (١٢٠) .

* * *

---

(١١٨) رواه مسلم . (١١٩) رواه أبو داوود .

(١٢٠) راجع الكتاب القيم « خلق المسلم » ـ لفضيلة الشيخ محمد الغزالى ولم يعدم الغرب من أشار الى أهمية الأخلاق ـ فهذا أحد فلاسفته « هربارت » يقول : ان التعليم يكون دائرة الأنكار ، وان التربية تكون الأخلاق ، ولا قيمة للثانية بدون الأولى .

تواضع العلماء على اطلاق « العبادات » على مجال محدود فى مقابل « العاديات » أو « المعاملات » ولا مشاحة فى الاصطلاح ٠

لكن ان أدى الاطلاق الى سوء فهم الشريعة فالمشاحة واردة ٠ ولذا ـ فاننا وان كنا قد سلمنا بالاصطلاح الا أننا نفضل مكانه «النسك» أو الشعائر حتى لا يلتبس على الناس دينهم ، أو لا يلتبس الحق بالباطل ٠فيظن البعض أنهم يحققون العبادة ، وهم يكتفون بهذه الشعائر وحدها ـ دون بقية الاسلام ولئن قال الرسول ﷺ فى شأن الصلاة : « رأس الأمر الاسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد » ٠٠ فان العمود لا يغنى عن بقية الاسلام وان لم يقم الاسلام الا به ٠ ومن هنا كانت صيحة أبى بكر الصديق : « والله لا أفرق بين صلاة وزكاة ، والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لحاربتهم عليه » (١٢١) ٠

وكان اتفاق العلماء على حرب كل من منع شريعة من شرائع الله (١٢٢) ٠ تلك كانت تقدمة للحديث عن العبادات ٠

نقول بعدها بعون الله تعالى :

اننا لن نتكلم عن العبادات ذاتها « من طهور ، ووضوء ، وصلاة ،

---

(١٢١) كتب السيرة ٠ وهو مشهور ٠

(١٢٢) ابن تيمية رضى الله عنه ٠ الفتاوى ـ « العبودية » ٠

وصوم ، وزكاة ، وحج ، وذكر ودعاء » .. لكننا نذكر بعض آثارها في مجال التزكية .. والله المستعان .

١ ـ فالعبادات عامة : يتجلى فيها التزكية بكل معانيها أكثر من غيرها . هي تطهير من الأوزار . والذنوب والأوضار .

هي تنمية...للصلة بالله سبحانه وتعالى يزيد بها الايمان.. **« اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه »** (١٢٣) .

هي تسام ... وارتفاع يرتفع بها المسلم عن الطين ليقترب من عالم الروح . لتسبح روحه في ذلك الأفق السامق ... حتى تتصل بالملائكة أو تكون خيرا منها .

وفي حديث حنظلة رضي الله عنه ما يشير الى ذلك التسامي الغريب الذي يمكن أن يتكرر مع كل عبادة تتحقق فيها أركانها وشروطها .

٢ ـ ان للعبادات ركنين أساسيين : أولهما الاخلاص : يحكمه قول رسول الله ﷺ « انما الأعمال بالنيات » (١٢٤) والآيات والأحاديث في المعنى كثيرة .

ثانيهما : أداء العمل على النحو الذي أمر به الله ورسوله يحكمه

---

(١٢٣) فاطر : ١٠ (١٢٤) متفق عليه .

قول رسول الله ﷺ : « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد » (١٢٥) . أى مردود عليه وباطل .

واذا أمكن فى أعمال أخرى التهاون أو الاختلاف فى شىء من ذلك فان ذلك غير وارد بالنسبة للتعبد .

٣ – فى الصلاة : طهر واغتسال ، لقول رسول الله ﷺ : « لو أن بباب أحدكم نهرا يغتسل به كل يوم خمس مرات أيبقى عليه شىء من الدرن » (١٢٦) .

« **أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** » (١٢٧) .

وفى الصلاة صلة بالله تعالى تنمو وتزيد مع الاقبال والاخلاص والاخبات « ان بيوتى فى الأرض المساجد ، وان زوارى فيها عمارها ، فطوبى لعبد تطهر فى بيته ثم زارنى فى بيتى ، فحق على المزور أن يكرم زائره » .

« قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، فاذا قال العبد : « **الحمد لله رب العالمين** » قال الله : حمدنى عبدى ، واذا قال : « **الرحمن الرحيم** » قال الله : أثنى على عبدى . واذا قال العبد : « **مالك يوم الدين** » ، قال : مجدنى عبدى ، واذا قال : « **اياك نعبد**

---

(١٢٥) رواه مسلم .
(١٢٦) رواه مسلم وأحمد وأبو داوود والترمذى
(١٢٧) العنكبوت : ٤٥ .

وإياك نستعين » ، قال هذا بينى وبين عبدى ، فاذا قال : « **اهدنا الصراط المستقيم • صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين** » ، قال : هذا لعبدى ، ولعبدى ما سأل » (١٢٨)

والصلاة بعد ذلك علاج للهلع الذى يجعل الانسان جزوعا من الشر مناعا للخير : «**ان الانسان خلق هلوعا•اذا مسه الشر جزوعا• واذا مسه الخير منوعا • الا المصلين** » (١٢٩) •

وكان الرسول ﷺ اذا حزبه أمر نهض الى الصلاة •

وهى بعد ذلك الملجأ للمحتاج والراحة للمضطرب والواحة وسط صحراء الحياة • « **واستعينوا بالصبر والصلاة** » (١٣٠) •

« أرحنا بها يا بلال » •

« **وجعلت قرة عينى فى الصلاة** » (١٣١) •

٤ ــ وفى الزكاة : طهر للنفس من الشح ، ومـا أشده من مرض على النفس « **وأحضرت الأنفس الشح** » (١٣٢) •

---

(١٢٨) رواه ابو نعيم فى الحلية •

(١٢٩) المعارج : ١٩ ــ ٢٢ (١٣٠) البقرة : ٤٥

(١٣١) رواه أحمد والنسائى والبيهقى فى السنن الكبرى عن أنس رضى الله عنه •

(١٣٢) النساء : ١٢٨

من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ، ان صلاتك سكن لهم » (١٣٣) .

وفيها نماء للخير فى النفوس ونماء للمال فى الجيوب ، فالنفس التى تعتاد البذل تعتاد الخير وينمو فيها ، والمال الذى يبذل لاينقص به المال بل يزيد : « لا ينقص مال من صدقة » .

وفيها تكافل بين طبقات المجتمع تزيل ما قد يظهر بدونها من أحقاد ، وتبطل دعاوى الجاهلين والمبطلين بصراع المجتمعات .

وفى انفاقها على مصارفها تنظيم اقتصادى جميل وعجيب لا تتسع له هذه السطور (١٣٤) .

٥ – وفى الصوم والحج ... والدعاء والذكر : ثم فى سائر النوافل من الخير الكثير ... ويكفى ذلك الحديث الجامع : « ما تقرب الى عبدى بشىء أحب الى مما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها،وان سألنى لأعطينه،ولئن استعاذنى لأعيذنه» (١٣٥)

---

(١٣٣) التوبة : ١٠٣.

(١٣٤) راجع « دعاة لا جباة » للمؤلف .

(١٣٥) رواه البخارى .

بيد أننا نشير الى نافلتين لهما فى مجال « التزكية العملية » أبعد الأثر :

أما الأولى : فقيام الليل – وفيه نقول بعون الله تعالى : ان عليه كان تربية الجماعة الأولى ٠

« **يا أيها المزمـل ٠ قم الليل الا قليـلا ٠ نصفه أو انقص منه قليلا ٠ أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ٠ انا سنلقى عليك قولا ثقيلا٠ ان ناشئة الليل هى أشد وطئا وأقوم قيلا** » (١٣٦) ٠

وأن رسول الله ﷺ ما تركه فى سفر ولا فى حضر ٠

وأن النصـــوص تواترت عـلى فضـله : « **وبالأسحار هم يستغفرون** » (١٣٧) ٠

« **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** » (١٣٨) ٠

« **ومن الليل فتهجد به نافلة لك** » (١٣٩) ٠

ومن الأحاديث النبوية : « عش ماشئت فانك ميت ، وأحبب من شئت فانك مفارقه ، واعمل ما شئت فانك مجزى به ، واعلم أن شرف المؤمن قيامه الليل ، وعزه استغناؤه عن الناس » ٠

« ٠٠٠ وأن تصلى والناس نيام » ٠

---

(١٣٦) المزمل : ١ ــ ٥ ٠ (١٣٧) الذاريات : ١٨ ٠
(١٣٨) السجدة : ١٦ ٠ (١٣٩) الاسراء : ٧٩ ٠

ان الممارسة العملية لهذه السنة الكريمة أثبتت ـ فى العصر الحاضر ـ فائدتها الجليلة وأثرها العميق فى صفاء النفوس وفى جلاء القلوب ٠

أما الثانية ـ فصيام التطوع : وهو يتحقق فيه ما يتحقق من آثار الصيام عموما ، وفى مقدمتها أن يورث التقوى ٠ والتقوى مرحلة من مراحل التزكية متقدمة ٠

والتطوع يؤدى معنى آخر ٠٠ هو اقبال النفس ٠٠ اقبالا يطوعها لما فوق ذلك ٠ ومع هذا وذاك ٠٠ دعاء تنفثه النفس بالأسحار أو فى الثلث الاخير من الليل حيث يتنزل الرب سبحانه وتعالى الى السماء الدنيا ٠٠٠ حسبما جاء فى الحديث : « ينزل الله تعالى كل ليلة الى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول : من يدعونى فأستجيب له ؟ من يتسألنى فأعطيه ؟ من يستغفرنى فأغفر له » (١٤٠) هذا الدعاء يريح النفس ويزيح عنها همومها وآلامها ، فضلا عن انه يحقق العبودية فى جانب العبد ، والربوبية فى جانب الرب سبحانه وتعالى : « **أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ، أ اله مع الله** » ؟ (١٤١) ٠

« **وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ، ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين** » (١٤٢) ٠

---

(١٤٠) متفق عليه ٠ (١٤١) النمل : ٦٢

(١٤٢) غافر : ٦٠

وقد صح فى الأثر « الدعاء مخ العبادة » .

ومع الدعاء ذكر .. يترطب به اللسان ويطمئن به القلب **« ألا بذكر الله تطمئن القلوب »** (١٤٣) . وأعلى الذكر كتاب الله سبحانه – يقرؤه المسلم ويرتله ، ويتفهم معانيه ، ويتدبر آياته ومعه فى كل حالة ذكر ... ذكر بالقلب ، وذكر باللسان ، وتأمل بالجنان ، وتفكر فى خلق السموات والأرض : **« ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار »** (١٤٤) .

كلمة أخيرة ..

نحن نقدر لبعض الدعاة جهدهم فى مجال التربية والتزكية ، ونقدر لهم اهتمامهم بجانب التعبد ، وقد صح فيه الكثير من الآثار ، بل ان أركان الاسلام الخمسة أربعة منها خاصة بالتعبد « الزكاة ، الصلاة ، الصيام ، الحج » وما يدور حولها من شعائر ، بيد أنا نعتب عليهم اقتصارهم على هذا الجانب ، لأن الاقتصار على جانب يؤدى الى أضرار كثيرة :

أولها : سوء فهم الاسلام كنظام شامل تناول الدنيا والآخرة ، والعبادة والمعاملة ، والحكم والاقتصاد ، والاجتماع .

---

(١٤٣) الرعد : ٢٨

(١٤٤) راجع فى الاذكار المختلفة كتب الأذكار فى الصحاح ، ورسالة المأثورات للامام حسن البنا – والآية من سورة آل عمران : ١٩١ .

ثانيها : تضخم جانب يكون على حساب جانب آخر .

واذا كانت الحياة كلها محراب عبادة . فان الاقتصار على جانب التعبد يفقد بقية جوانب الاسلام فيكون مثله كمثل من يتعبد بصلاة الصبح دون صلاة الظهر أو العصر أو المغرب « **فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون** » (١٤٥) .

ثالثها : الغفلة عن غير جانب التعبد يخضعه غفلة أو عنوة لغير أحكام الله .. ومن ثم نرى الأحكام الوضعية فى جوانب الحياة تحكمها وتخضعها وتعبد فيها الناس لغير الله رب العالمين .

ترى هل ننتبه الى أن الاسلام منهج شامل ، وأن التربية الاسلامية بدورها منهاج شامل كذلك ؟ .

* * *

رابعا ـ التزكية بالمعاملات :

المعاملات قيم العبادات : فهى فى التقسيم الفقهى مقابلة لها . وهو ما قد يوحى بأن جانب التزكية هو فيما يتعلق بالتعبد من صلاة وصوم وقيام وحج ، أما ما يتعلق بالمعاملات فهو طليق من القيود بعيد عن مجال التزكية . وهو خطأ يوحى به هذا التقسيم من بين ما يوحى . وسوف يتبين لنا عمق الخطأ عما قريب باذن الله تعالى .

---

(١٤٥) الماعون : ٤ ، ٥

كذلك فقد لا يقدر البعض مساحة المعاملات فى الاسلام وأهميتها ٠

انها تمتد لتشمل كل ما يسمى بلغة البعض «فروع القانون العام» و« فروع القانون الخاص » والأول هو الذى تكون الدولة طرفا فيه باعتبارها صاحبة سلطان وسيادة ، والثانى هو ما لا تكون الدولة طرفا فيه بهذه الصفة ، ويغلب أن يكون علاقات بين الأفراد ، واذا وجدت الدولة طرفا فيه فليس باعتبارها صاحبة سلطان وسيادة ٠

وفروع القانون العام تشمل القانون الدولى العام (الذى ينظم العلاقات بين الدول) ، القانون الدستورى (الذى ينظم شكل الدولة وسلطاتها وحقوق الحاكم والمحكوم) ، القانون المالى (الذى ينظم الايرادات ، والمصروفات ، وأمور الميزانية ، وما يتعلق بهذا كله) ، القانون الجنائى (الذى ينظم الجرائم ويحددها ويضع لها العقوبات)، القانون الادارى (الذى ينظم الادارات والمؤسسات والمرافق العامة وما يتعلق بهذا كله) ٠٠ الخ ٠

أما فروع القانون الخاص : فتشمل القانون المدنى (الذى ينظم العقود من بيع وشراء وايجار ، وينظم التصرفات المنفردة كالهبة والوصية ٠٠ الخ) ، والقانون التجارى (وهو ينظم ذات العلاقات بين التجار) ، والقانون البحرى (ما يتعلق بشئون البحر ومايجرى فيه) ، وقانون المرافعات (ويتضمن اجراءات الدعوى والمدعى والمدعى عليه ٠٠ الخ ٠٠) وهكذا ٠٠

والمعاملات فى الاسلام تشمل نطاق القانون العام والقانون

الخاص ، وقد تزيد على ذلك لأنها تشمل النظام الاقتصادى ، أو النظام الاجتماعى ، وفيها ما لا يدخل تحت تلك الفروع ، وذلك فضلا عن شمولها النظام السياسى الذى قد يدخل القانون الدستورى والدولى تحت نطاقه .

والمعاملات بهذه المثابة تكاد تشمل حياة الفرد ، وحياة الأسرة، وحياة المجتمع . وهى وثيقة الصلة بالعقيدة والأخلاق لربط النصوص اياها بها ـ وهى فى الوقت نفسه مجال كبير للتزكية ، بل ان التزكية مع ترك نطاقها تكون محدودة وتكون مبتورة ، وهكذا يشيد بناء التزكية بعضه ببعضا .

وسوف نورد مثلين من سورتين يبين منهما ارتباط المعاملات بالاخلاق والعقيدة ، ثم نبين فيهما كذلك مجال التزكية الكبير من خلال أحكام المعاملات .

وقبل ذلك نشير الى أن التزكية تتم على النحو التالى :

(أ) تعلم وتعود الحلال والحرام :

ففى مجال المعاملات نصوص توضح الحلال ، وأخرى توضح الحرام ، والوقوف عند محارم الله ، ومن ثم كانت التزكية من خلال تعلم أحكام الحلال والحرام ثم تعودها حتى لا يتعداها .

فاذا أخذنا البيع والشراء : ففيه أحكام تحرم الربا .

وفيه أحكام تكره بيع الرجل على أخيه .

وفيه أحكام تجعل الخيار للعاقدين ما لم يتفرقا « خيار المجلس » (١٤٦) .

وفيه غير ذلك . والوقوف عند تلك الاحكام وقوف عند حدود الحلال والحرام .

بيد أننا نود أن نشير الى أنه فى مجال المعاملات يرجح لدينا أن الأصل هو الاباحة ، بينما فى مجال الأبضاع الأصل هو الحظر « **والذين هم لفروجهم حافظون . الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين** » (١٤٧) .

(ب) البعد عن المشتبهات بلوغا الى التقوى :

ذلك أن ثمة دائرة بين الحلال والحرام قد يشتبه على الناس فيها ، فالذى يود أن يبلغ حد التقوى ينبغى أن يتقى الوقوع فى الشبهات لقوله عليه الصلاة والسلام : « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ألا وان حمى الله محارمه » .

ولسلوك الصحابة رضوان الله عليهم طريق « ترك ما لا بأس به مخافة أن يكون به بأس » .

---

(١٤٦) ورد فى الحديث « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا » .

(١٤٧) المؤمنون : ٥ ، ٦

(ج) التزام الأحكام العملية تعبدا :

ولئن قسم الفقهاء الحقوق الى حقوق لله وحقوق للعباد ، وجعلوا من الأخيرة أحكام المعاملات ، بحيث قد يظن العامى أن ليس لله فيها حق • وقد فطن الى هذا أحد العلماء (الامام الشاطبى رحمه الله) فقال : انه ما من حق للعبد الا ولله فيه حق •

وقسم الحقوق ثلاثة :

حق لله خالص •

حق للعبد غالب ، ولله فيه حق

حق للعبد ولله فيه حق •

ومن ثم فانه وفقا لهذا التقسيم لا يخلو حق من حق لله • وهو أمر يثير فى النفس التزكية ، ومن ثم يحرص المسلم على الوفاء بحق الله مع كل حق للعباد ، ويرقب الله بذلك فى كل تصرفاته (المدنية والتجارية) العامة ، والخاصة •

● **نموذجان :**

الأول : سورة الحجرات :

تضمنت أحكاما عديدة أكثرها أحكام اجتماعية ، وهى سوره مدنية تضمنت ثمانية عشر آية ، وتضمنت الآيات حوالى اثنا عشر حكما ، ومع ذلك تخللتها آيات التزكية بالتقوى • وبوجود رسول الله ﷺ بينهم ، ومن الله عليهم بالايمان وحببه للمقسطين • والأمر بالتقوى للتعرض لرحمة الله ، والتخويف من الفسوق بعد الايمان ،

والتخويف من أكل اللحم الميت بما يقترف من الغيبة وهكذا ... ويختم السورة بـ « **ان الله يعلم غيب السموات والأرض ، والله بصير بما تعملون** » (١٤٨) مما يوقظ فى النفس المراقبة لله عالم الغيب البصير بكل ما نعمل .

الثانى : سورة الطلاق (النساء الصغرى) :

وهى اثنى عشر آية ـ تضمنت حول عشرة أحكام وتضمنت معه تزكية وتذكيرا .

مع أول آية : أمر بالتقوى وتذكير بأنها حدود الله وتأكيد على أن من يتعدى حدود الله فقد ظلم نفسه ، ثم ايحاء بأنه لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ، كل ذلك يأتى فى آية واحدة ومع أمرين اثنين ، أن يكون الطلاق للعدة ، وأن لا يخرجن من بيوتهن .

وفى الآية الثانية أمر بالامساك بالمعروف أو بالمفارقة بالمعروف ومعها أمر بالشهادة ومعهما تذكير يرقى النفس ويزكيها : « **ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر** » (١٤٩) .

ثم تعقيب « **ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه** » (١٥٠) .

ومعها « **ان الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شىء قدرا** » (١٥١) .

---

(١٤٨) الحجرات : ٢٨ (١٤٩) الطلاق : ٢

(١٥٠) الطلاق : ٢ ، ٣ (١٥١) الطلاق : ٣

ويتكرر التذكير بالتقوى وعاقبتها فى الآيات التالية وبصورة أخرى جميلة :

« ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا » (١٥٢) ٠

« ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا » (١٥٣) ٠

ثم يأتى تذكير آخر : **« سيجعل الله بعد عسر يسرا »** (١٥٤) ٠

ومعه أو بعده تهديد شديد : **« وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا ٠ فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا ٠ أعد الله لهم عذابا شديدا ، فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا،قد أنزل الله اليكم ذكرا»**(١٥٥)

ثم يختتم السورة بما هو أقرب الى التهديد : **« الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد احاط بكل شىء علما »** (١٥٦) ٠

وهكذا والنماذج كثيرة ٠ والله تعالى أعلم ٠

* * *

---

(١٥٢) الطلاق : ٤ (١٥٣) الطلاق : ٥

(١٥٤) الطلاق : ٧ (١٥٥) الطلاق : ٨ ــ ١٠

(١٥٦) الطلاق : ١٢

الأساس الثالث : تعلم الكتاب والحكمة

● **تقدمة :**

لا نزال نتحدث فى الأسس العملية للتربية الاسلامية .

ذكرنا الاستجابة وكيف أنها تعلم وتعود ، وهى التى تشكل الركيزة الأولى للتربية الاسلامية وذكرنا التزكية وعرفنا أنها تخلية ثم تحلية بالعقيدة والاخلاق والتعبد والمعاملة وهى تشكل عمود التربية الاسلامية .

والآن نختتم بتعلم الكتاب والحكمة :

وأول ما يوحيه النص أن على المسلمين أن يتعلموا القرآن والسنة .. وهذه من معانى النص لا شك فى ذلك .

لكن النص يوحى بمعنى أعمق فى تعلم الكتاب ، ومعنى أعمق فى تعلم الحكمة . وسوف نعرض لهذا وذاك بعد العرض للمعنى الأول ، والله المستعان .

أولا ـ تعلم القرآن والسنة :

لا شك أن تعلم القرآن واجب ، وكذلك تعلم السنة . خاصة ما كان متعلقا منهما بالمعلوم من الدين بالضرورة الذى لا يسع مسلما جهله أو الاحتجاج بجهله .

ذاك قدر لازم وواجب ـ فى مجال التربية .

ومن ثم فعلى واضعى المناهج فى التعليم ، وعلى واضعى برامج الاعلام أن يراعوا ذلك ودراسة هذا وذاك أولى بلا شك من مناهج فاسدة أو غير مفيدة ، وأولى كذلك من برامج تافهة وأخرى تشيع الفاحشة وتدعو اليها بين الناس ٠

واذا لم يتح هذا الأمر فى تعليمنا أو فى اعلامنا ، فعلى القائمين على أمر الدعوة الاسلامية أن يتيحوا لأعضائهم أولا ـ ثم للناس كافة ـ أن يتعلموا الكتاب والسنة وواجبهم فى ذلك كبير وأكيد ٠

وأحسب أن المساجد ـ خاصة تلك التى أفلتت من محنة التأميم ـ تقوم على هذا الأمر فى طول العالم الاسلامى وعرضه ، وحتى التى أصابها التأميم تقوم به وان كان أثره بطريقة « وظيفية » أقل كفاءة مما يؤديه المتطوعون ٠

* * *

ثانيا ـ علم الكتاب :

علم الكتاب هنا شىء غير تعلم الكتاب أو تعلم القرآن ٠

انه مرحلة عليا لا يستطيعها كل مسلم ، وينبغى أن يحاول البعض وأن يساعدهم من سبقوهم للبلوغ اليها ٠

نلمح ذلك من خلال ما حكت سورة النمل عن : « **الذى عنده علم من الكتاب** » فقد استطاع ما لم يستطعه عفريت من الجن فقد قال الأخير : « **أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك** » وقال الأول : « **أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك** » (١٥٧) ٠

---

(١٥٧) النمل : ٣٩ ، ٤٠ ٠

ولعل هذا المستوى هو الذى تشير اليه الآية الكريمة . « **وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم** » (١٥٨) ، عند الذين لا يجعلون الوقف لازما بعد لفظ الجلالة ... فيكون المعنى أن الراسخين فى العلم يعلمون بعد الله تأويله (أى تأويل المتشابه) .

كذلك قد يؤكدها قول الله تعالى : « **وأو ردوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** » (١٥٩) ، فلعل هؤلاء هم الراسخون فى العلم أو هم الذين أوتوا علم الكتاب .

كذلك قول الله تعالى « **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون** » (١٦٠) .

هذه الطائفة التى أمر الله أن تنفر للتفقه فى الدين رغم حالة الحرب ، هى المعنية بالنصوص السابقة ، وبغيرها من مثل قول رسول الله ﷺ « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » .

ومن ثم وجب فى مجال التربية اعداد هذه الطائفة على نحو رفيع .

* * *

ثالثا ـ تعلم الحكمة :

لابد لهذه الطائفة « المختارة » من أن تتعلم الحكمة كذلك .. فما الحكمة ؟

---

(١٥٨) آل عمران : ٧ (١٥٩) النساء : ٨٣

(١٦٠) التوبة : ١٢٢

الحكمة لغة : هى العدل ، والعلم ، والحلم ، والنبوة ، والقرآن ، والانجيل (١٦١) .

وهى كذلك : الاتقان : أحكم الأمر : أتقنه ، وأحكمته التجارب فصار حكيما (١٦٢) .

وهى كذلك اصابة الحق بالعلم والعمل .

وهى ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب (١٦٣) .

وقد ترد بمعنى النبوة والرسالة **«وآتاه الله الملك والحكمة»** (١٦٤) **« وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب »** (١٦٥) .

والحكمة شرعا : هى الاصابة فى القول والعمل معا (١٦٦) .

ووضع كل شىء فى موضعه (١٦٧) .

وقد ترد بمعنى السنة ، أو القرآن ، أو النبوة (١٦٨) .

---

(١٦١) القاموس المحيط جـ ٤ ص ٥٨ طبعة ثانية .

(١٦٢) لسان العرب جـ ١٢ ص ١٤٠ بتصرف .

(١٦٣) تاج العروس جـ ٨ ص ٢٥٣ .

(١٦٤) البقرة : ٢٥١ (١٦٥) سورة ص : ٢٠

(١٦٦) الطبرى جـ ٣ ص ٦٠ ، الرازى جـ ٤ ص ٧٣

(١٦٧) ابن كثير جـ ١ ص ١٨٤ ـ روح المعانى للآلوسى جـ١ ص ٣٨٧ .

(١٦٨) الطبرى وابن كثير والآلوسى والنسفى ، الأولى سبقت ، والأخيرة جـ ٢ ص ١٦٦

وقد ذكر البعض فيها ٢٩ مقالا بمعان متقاربة • وذكر ابن كثير أن الصحيح : أن الحكمة لا تختص بالنبوة بل هى أعم منها •

ونحن نجمع بين المعنيين اللغوى والشرعى لنقول : اننا نحسب المقصود بالحكمة فى النص الكريم هو العلم والحلم والاتقان والحنكة التى تولدها التجارب واصابة الحق علما وعملا ، والاصابة فى القول والعمل ، ووضع كل شىء فى موضعه •

ومن ثم يكون واجبا فى مجال التربية البلوغ بطائفة معينة الى مستوى الحكمة : «**ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا**» (١٦٩)

ومن أمثلة الحكمة تصرف سليمان عليه السلام بالنسبة للمرأتين اللتين تنازعتا طفلا • فقد قال : أتونى بالسكين أشقه بينكما . فقالت احداهما : لا ، يرحمك الله هو للأخرى ، فأعطاه لمن قالت ذلك •

ومن أمثلة كثيرة فى حياة رسول الله ﷺ تصرفه مع حاطب بن أبى بلتعة الذى أخبر كفار مكة بقدوم الرسول ﷺ عليهم وتصرفه مع أبى بن سلول عندما قال : « **لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل**» (١٧٠)،وتصرفه مع الذى جاءه يقول : أريد أن أزنى يارسول الله ، فما غضب ولا نهر بل قال : أترضاه لأمك ، أترضاه لأختك ،• وقوله ﷺ للسعدين عند غزوة الأحزاب بعد ما سمع نقض بنى قريظة لعهدهم : « ان كان حقا فألحنوا الى لحنا أعرفه ولا تفتوا فى أعضاد الناس ، وان كانوا على الوفاء فاجهروا به » •

* * *

---

(١٦٩) البقرة : ٢٦٩ (١٧٠) المنافقون : ٨